آيات الجهاد في القرآن الكريم

دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية

الدكتور

كامل سلامة الدقس

دكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الأولى
من جامعة القاهرة - كلية الآداب

الناشر

دار البيان

ص.ب ٢٠١٧ - برقيًا: ترين - الكويت

"بحث نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الأدب
من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى .
ورأت اللجنة أنه جدير بأن يطبع باللغة العربية
ويترجم إلى اللغات الأجنبية ."

آيات الجهاد في القرآن الكريم

دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية

حقوق الطبع والنشر محفوظة
١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله الذى شرع الجهاد لنصرة الحق ، ودفع العدوان ، وحماية الدعوة وإعلاء كلمة الله ورَفَع درجة المجاهدين وأعلى مراتبهم ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيد المجاهدين ، وقائد المؤمنين ، الذى جاهد فى الله حق جهاده ، وعلى آله وصحبه الذين باعوا انفسهم لله ، وبذلوا اموالهم فى سبيل الله ، فتم لهم النصر الذى اراده الله وكانوا من الفائزين .

وبعد : فقد كان الحافز لاختيار الموضوع (آيات الجهاد فى القرآن ..) اهدافا منها :

اولا : رغبتى فى اختيار موضوع يتعلق بالقرآن ، خدمة لكتاب الله الكريم ، وتقربا إليه سبحانه بأحب الأعمال اليه ، ذلك لأننى لا اكاد اعرف علما من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم .

فيبدو انه لا قيمة لدراسة فنون العربية وعلومها بدون الرجوع إلى ميزان هذه العلوم ومعتمدها الأول ، ولا اعتبار لأدب اديب يترطن فى تلاوة القرآن ، ولا يكاد يبين .

ثانيا : رأيت أن القرآن الكريم يعنى (بالجهاد) عناية فائقة ، إذ شغلت الآيات الجهادية حيزا كبيرا يبلغ نصف القرآن المدنى . وهذا يدل على اهمية هذا الموضوع فى تاريخ الدعوة الاسلامية والتشريع الاسلامى .

ثالثا : لقد سجل القرآن الكريم فى الآيات الجهادية موقف الاسلام من خصومه الذين شرع الجهاد من اجل التصدى لهم ، كما سجل الحركة التاريخية الضخمة التى صاحبت الدعوة الإسلامية منذ فرض الجهاد بعد الهجرة ، وما دار فيها من غزوات . مسجلا مشاهدها واحداثها ، ومصورا نفسية المسلمين وخصومهم فيها ، وما اعده الله لهؤلاء واولئك من ثواب وعقاب .

وقد بلغ عدد الغزوات التى قادها النبى صلى الله عليه وسلم سبعا وعشرين وعدد السرايا التى سيرها سبعا واربعين ، اى بمعدل سبع وقائع فى السنة ، مما يدل على اهمية (الجهاد) فى السيرة النبوية ، وما شغله من حيز عظيم فى هذا العهد .

رابعا : القرآن الكريم امة وحده فى البلاغة العربية ، فاردت أن أتبين أسرار سموه ، عساى أدرك سبب ما كان له من تأثير فى النفوس ، وسلطان على القلوب .

وفى (آيات الجهاد) مجال فسيح لدراسة فنية خصبة تتناول اسلوب هذه الآيات وخصائصها التعبيرية واللغوية ، وبراعة القرآن الكريم فى إبراز الجوانب النفسية وما تموج به نفوس المجاهدين من انفعالات ومشاعر واحاسيس .

خامسا : ومن اسباب اختيار هذا الموضوع عدا ما فيه من اهمية وحيوية

بالغة هو : بيان الحق فيما يتصل ببعض نواحى (الجهاد) الذى شغل المستشرقين . فكتب الكثيرون منهم فى زوايا منه وفق ما أملاه عليهم التعصب والهوى والكراهية ، إذ أنهم يريدون محاربة الاسلام على أساس نشأته الفكرية العلمية . فمن أجل هذا الواقع نشأ (الاستشراق) .

وقد حوّل المستشرقون والمبشرون معا (مفترياتهم واتهاماتهم) إلى (مشكل) باسم الدراسة العلمية . وبالتالى رأيت أن أفند مطاعنهم وأرد عليها بأسلوب علمى دقيق .

سادسا : الموضوع من جوانبه المختلفة (الموضوعية والتاريخية والفنية) جدير بدراسة علمية وفنية متأنية متعمقة ، وبخاصة لأنه — من ناحية — موضوع جديد لم يتناوله أحد من الباحثين من قبل فى دراسة مستقلة متخصصة شاملة تستوعب جميع جوانبه ، وتضم جميع أطرافه ، ولأنه من ناحية أخرى موضوع الساعة الذى يشغل المسلمين اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأنهم قد وقعوا تحت سيطرة البغاة والطغاة . يسومونهم سوء العذاب فى حرياتهم وكرامتهم وسائر شؤونهم الدينية والدنيوية . بل تجاوز الأمر أن وصل الى اليهود الذين هم أذل أمم الارض ليسوموهم كذلك سوء العذاب والخسف . ويذلوهم وينتهكوا حرماتهم ومقدساتهم وكرامتهم ويطردوهم من أوطانهم ، ويوقعوا فيهم من الزرايا ما ترتعد له الفرائص ، ويبيتوا لهم من المطامع ما يثير الرعب والفزع ، مع مافى ذلك من مخالفة لمبادىء دينهم وهدى قرآنهم وسيرة نبيهم وسلفهم الصالح ، وقد قرر القرآن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فبدلوا ما قرر ووعدهم إذا آمنوا حق الايمان وجاهدوا خير الجهاد، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، وأنفقوا فى سبيل الله شيئا من أموالهم، ليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليستخلفنهم فى الأرض ، وليبدلن خوفهم أمنا وعسرهم يسرا ، ويكتب لهم النصر والفوز ويجعل أعداءهم الأذلين الصاغرين . فأهملوا ما وعد الله فعاقبهم بالذلة والمسكنة . وهذا يوجب على الباحثين والدارسين وعلى علماء المسلمين وكتابهم بذل الجهود المستمرة فى تبيين خطورة هذا الركن مستعينين بالمدد القرآنى الفياض من آيات الجهاد القوية النافذة حتى يعيدوا للمسلمين سيرتهم الأولى فى الاقدام والاستماتة ، والاستهانة بالتضحيات ، وأن يحققوا فى حاضرهم ما حققوه فى ماضيهم من نصره وعزه ، وما النصر الا من عند الله .

* * *

وقد اقتضى موضوع الرسالة وأهدافها أن يكون منهج البحث فيها ممثلا فى تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما التمهيد : فقد جعلته لدراسة (مفهوم الجهاد فى سبيل الله) كما عبر عن هذا المفهوم القرآن الكريم فى آياته البينات ، وكما فسره رسول الله فى أحاديثه الشريفة ، وكما عرفه فقهاء المسلمين ومفسروهم ، وصوره المستشرقون والمبشرون .

وبعد أن خرجت من هذا التمهيد بمفهوم محدد لحقيقة (الجهاد فى سبيل الله) ، وزعت الرسالة على ثلاثة ابواب ، جعلت الباب الأول منها للدراسة (الموضوعية) ، وقد قسمت هذا الباب الى أربعة فصول :

الفصل الاول : نهض بدراسة أنواع (الجهاد فى سبيل الله) فقد تحدثت الآيات الجهادية عن أربعة أنواع أساسية للجهاد فى سبيل الله هى : مجاهدة

النفس ، ومجاهدة الشيطان ، وهما ما اتفق الفقهاء على تسميته (بالجهاد الأكبر) والجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، وهما (الجهاد الأصغر) وكلاهما متمم للآخر ، ومكمل له .

وكان لا بد من تقديم هذا الفصل على سائر فصول الرسالة ، لأن فيه الحديث عن بناء العقيدة الايمانية فى نفوس المسلمين ، وإعداد الجماعة الاسلامية نفسيا ، ومعنويا وماديا للجهاد ، بتحرير نفوسهم من كل ما يعوقها عن البذل والتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

الفصل الثانى : وقد خصصت هذا الفصل لدراسة بواعث الجهاد وغاياته (كما نصت على ذلك آيات الجهاد نصا صريحا لا يقبل الشك ولا التأويل ، وقد تمثلت هذه البواعث فى رد الاعتداء بكل صوره وأنواعه ، من ابتداء العدو بقتال المسلمين ، أو الاعتداء على عقيدتهم ، ومحاولة فتنتهم عن دينهم ، أو اضطهادهم ، او محاولة نقض العدو للعهد والميثاق . أما الباعث الثانى الذى حددته الآيات فهو (حماية الحرية فى نشر الدعوة) وتمكين الدعاة من مواجهة الشعوب ودعوتهم إلى دين الله فمن حال دون الدعوة أن تصل إلى الشعوب وجب قتاله .

وقد فندت فى نهاية هذا الفصل مفتريات المستشرقين حول (مسألة الاكراه فى الدين) ومسألة (انتشار الاسلام بالسيف) وطمع المسلمين فى الغنائم ، وحبهم الفطرى للغزو والنهب والسلب .. الخ .

أما الفصل الثالث : فقد جعلته للحديث عن (عناصر النصر ومقوماته) كما رسمته آيات الجهاد ، التى وضحت أن هناك سننا ثابتة فى النصر والهزيمة من سار عليها ظفر وإن كان ملحدا أو وثنيا ، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا نبيا .

وقد تمثلت هذه العناصر فى : القوة المادية والمعنوية (الروحية) والتنظيم العملى للحرب ثم تحدثت فى نهاية الفصل عن شبهات المستشرقين حول سر انتصار المسلمين وسرعة انتشار الإسلام ، والفرق بين انتشار الدعوة الدينية ، وامتداد الدولة الاسلامية .

وواضح صلة هذا الفصل بالذى سبقه ، إذ أن معرفة الأهداف التى يقاتل من أجلها الجندى من أقوى عناصر النصر .

أما الفصل الرابع : فقد نهض بكل ما يتخلف عن القتال من آثار ونتائج من (غنائم وأنفال وفىء وأسرى وجزية) .

وقد تحدثت فى هذا الفصل عن رفق الاسلام بالأسرى ومعاملتهم معاملة كريمة ، ومقارنة كل ذلك بأحدث ما توصلت إليه مدنية القرن العشرين . ثم تحدثت عن الفروق الدقيقة بين الغنائم والأنفال والفىء ، ومشروعيتها ، وحكمة توزيعها .

وفندت أقوال المستشرقين والمستغربين حول هذه المسائل جميعا .

أما الباب الثانى : فقد جعلته (للدراسة التاريخية) ورتبت فيه السور المدنية ترتيبا تاريخيا حسب النزول ، باستعراض أهم الروايات الصحيحة التى وردت فى ترتيب سور القرآن المدنية ، وتمحيصها تمحيصا علميا دقيقا بمناقشة السند والمتن ، وعقد المقارنات والموازنات بينها لاستخلاص النتائج الجديرة بالثقة والاطمئنان ، ودراسة الظروف التاريخية المختلفة التى أحاطت بنزول السور الجهادية .

وقد أفردت الفصل الأول من هذا الباب لدراسة (مشروعية الجهاد)

والمراحل التاريخية التى مَرّ فيها ، من بداية الدعوة وحتى انتقال رسول الله (قائد الجهاد) إلى الرفيق الأعلى .

وقد قمت بتوزيع النصوص القرآنية إلى مرحلتين أساسيتين هما : المرحلة المكية التى امتازت بالجهاد السلمى ، والمرحلة الثانية وهى المرحلة المدنية التى تميزت باستعمال السيف ومقابلة القوة بالقوة . وقسمت المرحلة الثانية إلى مراحل متعددة معتمدا على السور القرآنية التى نزلت فى كل مرحلة ، والتى طبعتها بطابع خاص يختلف عما قبله وعما بعده .

أما الفصل الثانى : فقد خصصته للحديث عن أشد أعداء الدعوة خصومة (وهم المشركون) وكيف تطور اسلوب الآيات الجهادية فى معاملتهم فى كل مرحلة حتى وصلنا إلى المرحلة النهائية التى تأمر بقتلهم دون أن تأخذ المسلمين بهم شفقة ولا رحمة . وقد استعرضت فى هذا الفصل السرايا والغزوات التى تحدثت عنها الآيات مع ربط ذلك بروايات أسباب النزول والسرد التاريخى — بالقدر الذى يوضح الآيات ولا يطغى عليها .

أما الفصل الثالث : فقد خصصته للحديث عن مجاهدة (أهل الكتاب) وعن مواقفهم من المسلمين ومواقف المسلمين منهم فى مختلف المراحل التى تحدثت عنها الآيات ، وبيان الحكمة فى التدرج فى معاملتهم ، حتى تم القضاء على نفوذهم وتطهير أرض الجزيرة العربية منهم .

أما الفصل الرابع : فقد خصصته للحديث عن (مجاهدة المنافقين) ونهجت فيه نفس النهج الذى نهجته فى الفصلين السابقين .

وقد نهض الباب الثالث (بالدراسة الفنية) . وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين كبيرين يحملان أهم الظواهر الفنية فى الآيات الجهادية . وقد جعلت الفصل الأول لدراسة (الآية الجهادية) تركيبها وسبكها ، فتحدثت عن الألفاظ المفردة ، والأفعال واستعمالها ، والتكرار ، والالتفات ، والايجاز والاطناب ،والتقديم والتأخير ،والفصل والوصل ،والذكر والحذف ،والتخصيص أو القصر ، والموسيقا .

أما الفصل الثانى فقد جعلته (لتصوير المعانى الجهادية) ، وتحدثت فيه عن التصوير بالتشبيه والتمثيل ، والتصوير بالاستعارة وبالكناية والتعريض. ثم بينت كيف عبّرت هذه الآيات بالصورة المحسة المتخيلة عن المعانى الذهنية، والحالات النفسية ، والمشاهد المنظورة ، والنماذج الانسانية ، ثم تحدثت عن ظاهرة الصدق الفنى فى الآيات الجهادية كظاهرة تستحق الدراسة .

وأخيرا جاءت الخاتمة : تحمل الغاية من هذا البحث ، ففيها سجلت الفكرة الكلية التى تعبر تعبيرا جامعا عن (آيات الجهاد فى القرآن ...) والتى جاءت نتيجة لهذه الدراسات التفصيلية .

* * *

وقد سرت فى دراستى لموضوع الرسالة على هدى الطريقة العلمية الموضوعية التاريخية . فهى طريقة علمية أصيلة : لا استهوائية عاطفية طريقة تؤصل الموضوعات بالأدلة بعد تحقيقها وسبر أغوارها ومناقشتها ، وتسعى لتبيان الحقيقة بحسب الظفر بالدليل الصحيح دون تعصب لرأى معين ولا تقليد بعيد عن الحق .

وهى طريقة موضوعية : تعمد إلى النصوص القرآنية فتسير على هداها دون تأويل ولا تحميل لها أكثر مما تحتمل . فنحن نلجأ أولا الى الآيات القرآنية

ثم الى السنة النبوية الصحيحة ثم إلى عبارات المفسرين والفقهاء على اختلاف آرائهم ومذاهبهم فى كافة العصور إلى وقتنا هذا . وان هذه الدراسة لا تقوم على التعبير عن الفكرة الواحدة بمثال واحد ، ولكنها تقوم على الاستقراء والاستقصاء التام .

وهى طريقة تاريخية : تعتمد على ربط النصوص القرآنية موضوع البحث بالواقع الذى نزلت فيه ، وتوزيع هذه النصوص القرآنية بين عدة مراحل تاريخية متميزة ، لتمكن ملاحظة أدوار التطور التى مر بها موقف الآيات الجهادية من خصوم المسلمين فى كل مرحلة على حدة ثم فى المراحل جميعا .

* * *

هذا ، وقد كان المصحف الشريف هو المصدر الأساسى الذى تعتمد عليه الرسالة ويدور حوله البحث . وقد تنوعت مصادر الرسالة ومراجعها من كتب التفسير القديمة والحديثة وعلوم القرآن ، ومن كتب الحديث والفقه ، والتاريخ العام والمعارف العامة وكتب القانون ،وكتب البلاغة ،والمخطوطات القديمة والوسائل العلمية الحديثة . فقد رجعت إلى ما يقارب الاربعمائة مصدر ومرجع فى اللغتين العربية والاجنبية .

وبعد : فلعلى اكون قد شاركت فى مجال البحوث القرآنية ببحث متواضع لم يبلغ الكمال بالتأكيد ، لأن ذلك لا سبيل لبشر إليه ، ولم يشارف الكمال ، لأنه بحث فى القرآن ، وكيف لمثلى أن يصل إلى المدى فيه ؟ ولكنى قد اجتهدت ، وتكلفت فى سبيل ذلك العناء كله ، ولا اقول بعضه ، ولست مغاليا ، لأن طريق البحث فى القرآن ليس مفروشا بالرياحين وإذا كان سبيل البحوث المتخصصة فى فرع من فروع المعرفة صعب المراس بالطبع ، فهو فى هذا البحث اشد صعوبة ، إذ يدور كله حول كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولانه متنوع الجوانب ، متعدد الاطراف اذ أنه قد شمل الامور الفقهية ، والتاريخية ، والبلاغية . وما يتبع هذه الفروع من علوم أخرى لا بد منها لاستكمال جميع جوانب هذا البحث .

* * *

ولا يفوتنى أن اذكر عظيم تقديرى لاستاذى الفاضل الدكتور محمد كامل أحمد جمعة ، الذى تفضل بمرافقتى فى رحلتى هذه ، ومنحنى من فضله وعلمه ووقته ما أضاء لى الكثير من جوانب البحث ، ودفعنى على اجتياز مراحله بهمة وعزم . وكان لا يألو جهدا فى ارشادى ، وتسديد خطاى ، فاليه والى كل من اسهم فى توجيهى وارشادى والاطلاع على رسالتى أقدم وافر شكرى ، واخص بالذكر : استاذى الفاضل الدكتور يوسف خليف الذى شارك فى وضع منهج هذه الرسالة فى بداية الرحلة ، واستاذى الجليل الدكتور حسين نصار الذى كان لتوجيهاته السديدة أعمق الأثر واطيبه فى اعداد هذه الرسالة ، والى فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة والدكتور مصطفى زيد والدكتور شكرى عياد والدكتور رمضان عبد التواب ، الذين كان لهم جميعا فضل الارشاد والتوجيه .

وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

المؤلف

التمهيد :

مفهوم الجهاد فى سبيل الله

الجهاد فى اللغة : بذل الوسع والطاقة ، او المبالغة فى العمل من الجهد . قال صاحب لسان العرب (١) : « جاهد العدو مجاهدة وجهادا قاتله . وهو المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قوة أو عمل » .

وجاء فى كتاب المغرب(٢) : « الجهاد مصدر جاهدت العدو إذا قابلته فى تحمل الجهد أو بذل كل منكما جهده أى طاقته فى دفع صاحبه ، ثم غلب فى الاسلام على قتال الكفار ونحوه » .

وقال الراغب فى مفردات القرآن(٣) : « والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو » .

وإذا كان الجهاد فى أصل اللغة هو مقاومة العدو ، فمن هو هذا العدو ؟

قال الراغب(٤) : « والجهاد ثلاثة أضرب مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس » .

وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده »(٥) . « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »(٦) . « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض »(٧) . وقال صلى الله عليه وسلم : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » . والمجاهدة تكون باليد واللسان قال صلى الله عليه وسلم : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم »(٨) .

وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى : « حق جهاده » بمعنى استفراغ الطاقة(٩) .

أما القرطبى فقد قال : « هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم فى طاعة الله وردها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان فى رد وسوسته ، والظلمة فى رد ظلمهم ، والكافرين فى رد كفرهم »(١٠) . أو « بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم »(١١) . كما قال ابن كثير .

وقد وردت كلمة « الجهاد » فى القرآن الكريم بمعنى « بذل الجهد بقوة مطلقا » كما جاء فى قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وإنْ جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »(١٢) .

---

١) لسان العرب : لابن منظور « مادة جهد » ٤/١٠٩ وانظر القاموس المحيط ١/٢٨٦ وصحاح الجوهرى /٢٣٠ .

٢) المغرب فى ترتيب المعرب لابى الفتح ناصر بن عبد السيد على المطرزى المتوفى سنة ٦١٦ ص ١٠٠ .

٣) المفردات فى غريب القرآن / للراغب الاصفهانى / ١٠٠ وانظر المخصص لابن سيده ١٣/٩ .

٤) المفردات / ١٠٠ وانظر تفسير المنار

٥) الحج / ٧٨ .

٦) التوبة /٤١ .

٧) الانفال /٧٢ .

٨) المفردات / ١٠٠ .

٩) زاد المعاد ١/٣٩ .

١٠) تفسير القرطبى ١٢/٩٩ .

١١) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٦ .

١٢) العنكبوت /٨ .

وجاء فى نفس السورة « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنَا وإنّ الله لمع المحسنين »(١) . بمعنى نصرة دينه وإعلاء شأنه مطلقا . وقوله تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنـــافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »(٢) . وقوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتبـــاكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٣) .

فكلمة « جهاد » إذن اشمل مدى من العمل الحربى ، حيث تتناول هذا العمل وتتناول بذل المال والجهد مطلقا فى سبيل نصرة دين الله الحق ، وجهاد النفس وجهاد الشيطان لأنهما عدوان للانسان « المجاهد من جاهد نفســه لله عز وجل »(٤) .

فقد وردت كلمة (حرب) فى القرآن الكريم أربع مرات بمعنى (القتال) كما جاء فى هذه الآيات « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله »(٥) أى كلما جمعوا واعدوا شتت الله جمعهم ، أو كلما اهاجوا شرا ، واجمعوا أمرهم على حرب النبى صلى الله عليه وسلم قهرهم ووهن أمرهم(٦) . وقوله تعالى : « فإما تثقفنّهم فى الحرب فَشَرِّدْ بهم مِنْ خَلْفَهم »(٧) أى فى القتال . وقوله تعالى : « فإما مَنًا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحــرب أوزارها »(٨) أى حتى تأمنوا وتضعوا الســـلاح . ويضع الأعداء المحاربون ســلاحهم بالهزيمة أو الموادعة(٩) . وقوله تعـــالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحـــرب من الله ورسوله »(١٠) .

روى عن ابن عباس أنه يُقال لآكل الربا يوم القيامة : خُذْ ســـلاحك للحرب(١١) .

هذه هى المواضع التى وردت فيها كلمة (حرب) فى القرآن الكريم ، وكلها جاءت بمعنى القتال واستعمال السلاح . فى حين أن كلمة (الجهاد) قد وردت اثنين وثلاثين مرة ووردت كثيرا بلفظ القتال المرادف لها .

أما كلمة (الغزو) فلم ترد إلا مرة واحدة ، جاءت فى قوله تعالى : « إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزّى »(١٢) . والغزو : « هو الخروج لمحاربة العدو »(١٣) .

ومن هنا يتضح أن كلمة (جهاد) أكثر استعمالا فى القرآن الكريم من كلمة (حرب) أو (غزو) أو غيرها . وهى بدون شك أوسع مدى وأشمل غاية من كلمة (حرب) التى تعنى القتال فى اللغة العربية وتقـــابلها كلمة (War) الانجليزية . وهى أيضا أبلغ تأثيرا وأكثر احاطة من كلمة (Struggle) فى اللغة الانجليزية ..

فما سر اختيار الاسلام لهذه الكلمة .. ؟

الذى أراه أنه ليس لذلك الا سبب واحد وهو أن كلمة (الحرب) كانت

---

١) العنكبوت / ٦٩ .
٢) التوبة /٧٣ .
٣) الحـج /٧٨ .
٤) تفسير القرطبى ١٢/٩٩ .
٥) المائـدة / ٦٤ .
٦) تفسير القرطبى ٦/٢٤٠ .
٧) الانفـال / ٥٧ .
٨) محمـد /٤ .
٩) القرطبى ١٦/٢٢٩ .
١٠) البقـرة / ٢٧٩ .
١١) تفسير القرطبى ٣/٣٦٣ .
١٢) آل عمران / ١٥٦ .
١٣) المفردات /٣٦٦ .

ولا تزال تطلق على القتال الذى يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية ، والغايات التى ترمى اليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد اغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ .

وبما أن القتال المشروع فى الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة(١) .

(فالجهاد) إذن كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد .

وقد وردت كلمة (الجهاد) وكلمة (القتال) المرادفة لها مقيدة بعبـــارة « فى سبيل الله » فى أكثر من خمسين مرة تقريبا . نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(٢) و « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله »(٣) . و « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »(٤) . و « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله »(٥) . و « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »(٦) . « إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله »(٧) . « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله »(٨) . « فئة تقاتل فى ســـبيل الله وأخرى كافرة »(٩) . « ولئن قتلتم فى سبيل الله »(١٠) . « وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله »(١١) « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يُقاتل فى سبيل الله فَيُقْتَل أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجرا عظيما »(١٢) . فلفظة الجهاد والقتال مقيدتان بهذا القيد « فى سبيل الله » لا ينفك عنهما .

ومثل ذلك كلمة (الانفاق) يجب أن يكون فى « سبيل الله » خالصا لوجهه « وأنفقوا فى سبيل الله »(١٣) . « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل »(١٤) . و « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم »(١٥) . « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم »(١٦) . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم »(١٧) . و « القتل أو الموت » يجب أن يكون فى سبيل الله حتى يكون المقاتل شهيدا « وَلَئِنْ قُتِلْتُم فى سبيل الله أو مُتُّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون »(١٨) . « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا »(١٩) . و (الهجرة) يجب أن تكون فى « سبيل الله » حتى ينال المهاجر الأجر والمثوبة « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة »(٢٠) . « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » (٢١) .

---

١) الجهاد فى سبيل الله للعلامة ابى الاعلى المودودى /١٢ .
٢) المـــائدة / ٥٤ .
٣) الانفال / ٧٢ .
٤) التوبة /٤١ .
٥) التوبة /٨١ .
٦) البقـــرة/١٩٠ .
٨،٧) البقرة /٢٤٦ .
٩) آل عمران /١٣ .
١٠) آل عمران /١٥٧ .
١١) آل عمران / ١٦٧ .
١٢) النساء / ٧٤ .
١٣) البقرة / ١٩٥ .
١٤) البقرة / ٢٦١ .
١٥) البقرة / ٢٦٢ .
١٦) الانفال / ٦٠ .
١٧) التوبة / ٣٤ .
١٨) آل عمران /١٥٧ .
١٩) آل عمران / ١٦٩ .
٢٠) النساء / ١٠٠ .
٢١) النساء / ٨٩ .

« فالذين هاجروا وأُخرِجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأُكفرنَّ عنهم سيئاتِهم ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسنُ الثواب »(١) .

فمن هذه الأمثلة يتضح لنا جليا أن الجهاد بالمال والنفس يجب أن يكون في سبيل الله . وأن الهجرة والإخراج والإيذاء يجب أن تكون فى سبيل الله ، وأن القتل والموت فى سبيل الله ، وأن التنويه بالمجاهدين فى سبيل الله ، والتنديد بالمتخلفين عن الجهاد فى سبيل الله .. الخ . فما هو هذا السبيل ؟

فَسّر رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبيل الله » بكلمته ، ودعوته ، ومبادئه ، ومنهجه فقد روى البخارى أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يُقاتل للمغنم والرجل يُقاتل للذكر ، والرجل يُقاتل ليُرى مكانه . فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(٢) .

وفسر الراغب(٣) : « السبيل بمعنى الطريق الذى فيه سهولة . قال : « ليصدونهم عن السبيل » يعنى عن طريق الحق . أما الطبرسى(٤) : فقد قال : السبيل هو الطريق ، فسبيل الله طريق مرضاته ، وإنما قيل للجهاد سبيل الله لأنه طريق ثواب الله عز وجل . وفسر الجلال(٥) : سبيل الله بطاعته ، الجهاد وغيره .

أما الشيخ رشيد رضا فقد قال(٦) : « سبيل الله هى الطريق الموصلة إلى مرضاته ، وهى التى يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده » . « والقتال فى سبيل الله هو : القتال لإعلاء كلمة الله وتأمين دينه ونشر دعوته ، والدفاع عن حزبه كى لا يغلبوا على حقهم ، ولا يُصدوا عن إظهار أمرهم فهو أعم من القتال لأجل الدين ، لأنه يشمل الدفاع عن الدين وحماية دعوته ، والدفاع عن الحوزة إذا هَمّ الطامع المُهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا » .

ويقول الشيخ محمود شلتوت(٧) : كلمة سبيل الله وردت كثيرا فى القرآن الكريم ، وهى فى الأصل بمعنى الطريق المعبد ، تستعمل فى الخير ، وتستعمل فى الشر ومنه سبيل المجرمين وتضاف إلى الله وإلى المؤمنين فيُقال : سبيل الله ، وسبيل المؤمنين ، وهى حينئذ تلتقى بمعناها مع كلمة « الصراط المستقيم » وكلاهما بمعنى ما رسم الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه وعمل الخير والحث عليه ، فإعلاء كلمة الله ، ونشر دعوة الإسلام من سبيل الله ودفع الأعداء إذا هددوا أمتنا من سبيل الله أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، من سبيل الله . وعلى العموم فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة » . « والجهاد فى سبيل هذه الأهداف هو الجهاد فى سبيل الله »(٨) .

وسبيل الله بحسب القرآن الكريم والسنة الشريفة يتبلور ويتركز فى :

---

١) آل عمران / ١٩٥ .
٢) صحيح البخارى ٤/٢٥ .
٣) مفردات / ٢٢٢ .
٤) مجمع البيان فى تفسير القرآن ٢/٣٤ .
٥) عن تفسير المنار ١/٢١٣ .
٦) تفسير المنار ٢/٢٥٤ و ٤٦٠ .
٧) تفسير القرآن الكريم / ٦٤٩ الشيخ محمود شلتوت .
٨) المرجع السابق / ٢٤٦ .

التوحيد فى مجال العقيدة والرحمة فى مجال الأخلاق ، والعدل فى مجال التشريع(١) .

والحق الذى لا مراء فيه ، والذى هو بديهى جدا ، أن الآيات القرآنية تجعل مفهوم « سبيل الله » مرادفا لمعنى طريق الله ودعوته ودينه وتعاليمه الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية والانسانية والتهذيبية التى احتواها القرآن وهدى إليها الرسول . وبعبارة ثانية الدعوة الإسلامية نفسها ، ولما كان الجهاد قد كُتب على المسلمين لضمان الحرية فى نشر الدعوة الإسلامية وصيانتها وحماية متبعيها والداعين اليها ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بتعبير « سبيل الله » .

ولكثرة ورود هذا التعبير « فى سبيل الله » مقترنا (بالجهاد) فقد ظن كثير من الناس انه يعنى الجهاد(٢) .

على أن الباحث المتمعن فى هذه المسألة يظهر له أن تعبير « سبيل الله » أعم وأشمل من (الجهاد) لأنه يعنى الدعوة الاسلامية كلها ، وأن الجهاد بالمال والنفس إنما شرع من أجلها . وهذا يبدو واضحا جليا فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »(٣) . هذا الى الآيات الكثيرة التى تدعم ذلك بصورة حاسمة قاطعة منها قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون »(٤) . وقوله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله «(٥) . وقوله تعالى : « إن الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله »(٦) .

ويُشير القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى أن بواعث الصد عن سبيل الله إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وكأنهم يرون أن سبيل الله إذا قامت ضعفت دنياهم ودالت دولتهم : « وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله(٧) » . وقوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا » (٨) .

وقوله : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله »(٩) .. الخ .

وقد فسّر سبحانه سبيله تفسيرا لا يقبل الشك ولا التأويل وذلك فى قوله تعالى : « قل تعالوا أتلُ ما حَرّمَ ربكم عليكم ، ألا تُشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزُقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حَرّم الله إلا بالحق ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتى هي أحسن حتى يبلغَ أشدّه ، واوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسط لا نُكلفُ نفسًا إلا وُسْعَها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ، وأنّ هذا صراطى

---

١) الجهاد والنصر /١٣ د. عبد الحليم محمود .

٢) الدستور القرآنى فى شئون الحياة ١/٤٩٠ .

٣) النحل /١٢٥ .

٤) آل عمران / ٩٩ .

٥) التوبة / ٣٤ .

٦) الانفال / ٣٦ .

٧) ابراهيم /٣ .

٨) النساء ١٦٧ .

٩) الانفال / ٤٧ .

مستقيما فاتبعُوه ولا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقـــون » (١) .

بهذا البيان الواضح ، والأسلوب القوى النافذ الى أعماق القلوب والعقول معا قررت هذه الآيات كون سبيل الله هو الدعوة الإسلامية بكمالها وتمامها ..

هذا ولا نعرف لكلمة « سبيل الله » فى القرآن معنى غير البر العـــام ، والخير الشامل (٢) فسبيل الله اذن هو سبيل الحق والخير ، سبيل تحقيق كلمة الله فى الأرض ، ورد الشاردين عنها إليها ، ليتحرر الناس من العبودية لغير الله ، ويرفع الظلم عن أفراد البشرية كافة فمن تحقيق كلمة الله أن يصل هذا الخير الذى جاء به الاسلام إلى الناس جميعا ، والا يحول بينهم وبينه حائل ، فمن وقف فى طريق خير البشرية وإسعادها فهو معتمد على كلمة الله ، ولا بد من إزالته من طريق الدعوة لتحقيق كلمة الله ، لا ليُكره الناس على الإسلام ولكن ليمنحهم حرية المعرفة واختيار ما يقتنعون به « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وهذا هو الجهاد المشروع الذى يقره الله ، عمل خالص لوجهه وابتغاء مرضاته ، لا تشوبه شائبة من الأغراض النفسية أو الطائفية أو القومية . ويجب الا يكون من هم المجاهد فى سبيل الله ولإعلاء كلمته أن ينال جاها أو شرفا أو سمعة أو حسن احدوثة . وإلا أصبح جهاده فى سبيل الطاغوت « الذين آمنوا يُقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون فى سبيل الطاغوت » (٣) .

والقتال فى سبيل الطاغوت هو تجاوز الانسان الحد والعلو فى الأرض والافساد فيها واستعباد الناس بالقهر والإكراه ، وقد ندد الله به وجعله شعار الكفار وديدنهم .. وقد وعد الله الذين يُقيمون الدين ولا يعلون فى الأرض ولا يعيثون فسادا الدار الآخرة وسعادتها الأبدية . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (٤) . « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٥) .

وقد اخرج ابو داود والنسائى من حديث ابى رضى الله عنه باسناد جيد ، قال : جاء رجل فقال يا رسول الله ، ارايت رجلا غزى يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ قال : « لا شىء له » فأعادها ثلاثا ، كل ذلك يقول « لا شىء له » . ثم قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لله وابتغى به وجهه » (٦) . غزا

وبهذا ندرك ما فى تقييد الجهاد الاسلامى بهذا القيد « فى ســـبيل الله » من بُعد المرمى وسُمو الغاية ، فإننا نرى كل مخلوق خلقه الله فى هذه الأرض مجتهدا فى سبيل نفسه ، يُواصل ليله بنهاره لإدراك غايته والوصول إلى مرماه، إلا المسلمين يبذلون مهجهم وارواحهم ويجاهدون بأموالهم وانفسهم فى سبيل إقامة كلمة الحق ، وقد أعدوا لمنازع الشر والطغيان كل ما استطاعوا من عدة وعتاد ، ليجتثوا شجرة الفساد من جذورها مهما رسخت وتغلغت عروقها فى

---

١) الانعـــام /١٥١ ــ ١٥٣ .
٢) تفسير القرآن الكريم /٦٥١ للشـــيخ محمود شلتوت .
٣) النساء /٧٦ .
٤) القصص /٨٣ .
٥) الحج /٤١ .
٦) متفق عليه (سبل السلام شرح بلوغ المرام ٣/٦٦ .

الأرض »(١) .

هذا هو المفهوم الحقيقي للجهاد في سبيل الله ، الذي أراد المستشرقون والمبشرون والمتعصبون على الإسلام أن يشوهوا هذه الحقيقة الناصعة « للجهاد في سبيل الله » وزعموا أنه قتال المسلمين للكفار لاكراههم على الاسلام ، ونشر الاسلام في جميع بقاع الأرض بقوة السيف .

فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية(٢) « الجهاد : نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة وكاد الجهاد أن يكون ركنا سادسا من أركان الدين . أو فرض عين ولا شك أنه ما زال كذلك عند سلالة الخوارج » ، وقالوا أيضا « الجهاد في اصطلاح الشرع محاربة من ليس بمسلم »(٣) .

وقد جرت عادتهم أن يُعبروا عن كلمة (الجهاد) بالحرب المقدسة (Holy war) إذا أرادوا ترجمتها إلى لغاتهم ، وقد فسروها تفسيرا خاطئا وتفننوا فيه والبسوها ثوبا فضفاضا من المعاني الموهة الملفقة ، وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة (الجهاد) عندهم عبارة عن شراسة الطبع والهمجية وسفك الدماء ، وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجه الحقيقة الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة (الجهاد) تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلتة سيوفها متقدة صدورها بنار التعصب والغضب ، متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام ، ما أن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه وجملته : إما أن يقول كلمة « لا اله إلا الله » ، « فينجو بنفسه وإما أن يُضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماء »(٤) .

ومرد هذه الشبهة المزعومة هو التعصب الأعمى من ناحية ، وعدم استجلاء حقيقة « الجهاد في سبيل الله » واستكناه سرها حتى على كثير من المسلمين أنفسهم ، فضلا عن غير المسلمين ولهذا فقد رأيت أن أمهد لبحثي بهذه الفكرة الموجزة عن مفهوم الجهاد في سبيل الله ، لتوضيح هذه الحقيقة وإزالة اللبس والغموض عنها .

---

١) الجهاد في سبيل الله للمودودي بتصرف /١٨ .

٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٨٨/٧ .

٣) دائرة معارف البستاني ٥٧٢/٦ مادة جهاد التي تترجمها الى Holy war وانظر العقيدة والشريعة جولد زيهر ١٠٦ ، ١٢٥ ، والاسلام والمستشرقون /٦٠ حياة محمد وارنلد /١٠٣ وغيرهم

٤) الجهاد في سبيل الله للمودودي /٣ بتصرف .

الباب الأول

الدراسة الموضوعية

تمهيد البحث مفهوم الجهاد في سبيل الله

الفصل الأوّل : أنواع الجهاد

الفصل الثاني : بواعث الجهاد وغاياته

الفصل الثالث : عناصر النصر ومقوماته

الفصل الرّابع : الأسرى والغنائم والأنفال والجزية

الفصل الأول

أنواع الجهاد

عرفنا مما سبق أن كلمة « جهاد » لا تقتصر على جهاد العدو الظاهر ، بل تشمل جهاد النفس والشيطان ، لقوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » (١)

جهاد النفس :

فسر عبد الله بن المبارك (٢) قوله تعالى « حق جهاده » بجهاد النفس والهوى . فيُجاهد الانسان نفسه ليُسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه فى ذات الله كما قال النبى عليه الصلاة والسلام « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو فى الخارج وأصلا له ، فانه ما لم يُجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أُمرت به وتترك ما نُهيت عنه ويحاربها فى الله لا يمكنه جهاد عدوه فى الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذى بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه فى الله ، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يُجاهد نفسه على الخروج . (٣)

إن الجهاد يبتدىء بجهاد النفس بتخليصها من الأهواء والشهوات واتجاهها إلى الحق فى ذاته ، وإلى الواجب فى ذاته ، لا حُبًا فى شهرة ولا رغبة فى متعة ولا رجاء فى أى شأن من شئون الدنيا ولا يُعتبر مجاهدا من حارب شجاعة وشهرة وطَلَبَ مالٍ إنما المجاهد من يجاهد لإرضاء الله وطلب ما عنده لرفعة الحق وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة أعداء الله هى السفلى ، وأن ذلك لا يكون إلا إذا جاهد نفسه ، واخضع أهواءه وشهواته ، ــ لأحكام الله تعالى ، وجعل هواه تبعا لما جاء به النبى وأمر الله تعالى به (٤) .

وقد اتفقت كلمة علماء المسلمين وفقهائهم على تسمية « جهاد النفس والشيطان » بالجهاد الأكبر ، وجهاد الأعداء بالجهاد الأصغر .

قال الباجورى : « الجهاد أى القتال فى سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهى المقاتلة ــ لإقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر ، أما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول إذا رجع من الجهاد : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » (٥) .

على أن هناك ارتباطا كبيرا بين الجهادين ، فالجهاد الأكبر تهذيب للنفس وتوجيه لها تجاه الخير ، وهى بذلك تستعد لجهاد العدو ، فأما النفوس التى انحرفت ،

---

١) الحج /٧٨ .

٢) زاد المعاد لابن القيم ٣٩/١ .

٣) المرجع السابق ٣٨/١ ــ ٣٩ .

٤) الجهاد /٨ للشيخ محمد أبو زهرة (من أعمال المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية سنة ١٩٦٨) .

٥) حاشية الباجورى على ابن القاسم ٢٦٨/٢ . « والجهاد » للشيخ محمد أبو زهرة /١٥ « وتفسير المنار » ٣٦٠/١٠ « والجهاد » للدكتور أحمد شلبى / ١٦ .

وغلبتها الرذيلة ، وسارت على الهوى ، فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تُصارع المعتدين ويعرف أهل التصوف النفس بأنها الأصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون لا بُدّ من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) (١) .

والحق أن المتصوفة قد جانبوا الصواب في تعريف النفس وحقيقتها ، فليست جميع النفوس سواء فالله سبحانه يُقسِمُ بالنفس اللوّامة (ولا أقسم بالنفس اللوّامة)(٢) . لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه . وقال تعالى (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) (٣) ، لأنها خضعت لأوامر الله ، وتخلصت من الشهوات والأهواء .

وهناك نفس أخرى أذعنت للشهوات وانقادت وراء الشيطان تلك هي « الأمارة بالسوء » . قال تعالى إخبارا من امراة العزيز « وما أبرئُ نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء » (٤) . وهذه النفس مذمومة غاية الذم .

ويقول ابن سينا (٥) : « أصناف النفوس ثلاثة كما ورد في القرآن : وكنتم ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » (٦) . ثم قال تعالى « والسابقون السابقون أولئك المقربون » (٧) .

فأما الكاملون فى العلم والعمل فهم السابقون ولهم الدرجة القصوى فى جنات النعيم . وأصحاب اليمين فى المرتبة الوسطى ، وأما أصحاب الشمال فهم النازلون فى المرتبة السفلى المنتحسون فى دار البوار وهم الذين دعوا هنالك ثبورا كثيرا » .

وقد أصاب ابن سينا فى تصنيفه للنفس ، ولكن السابقين الأولين لم ينالوا تلك الدرجة الرفيعة لتعلمهم العلم والعمل به فحسب بل لأنهم أيضا جاهدوا أنفسهم على تبليغ هذا العلم للناس والدعوة إليه ، والصبر على أذى الناس فى سبيل نشره فأصبحوا من الربانيين .

أما الذى أصاب كبد الحقيقة فابن القيم حين ذكر مراتب جهاد النفس فقال : أحدها : أن يُجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق . والثانية : أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . والثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل من الهدى والبينات . والرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإن استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين (٨)) .

وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلم الأول تربية نفوس الرعيل الأول فى مكة — على الجهاد فى سبيل الله ، وإعدادهم إعدادا قويا حسب تعاليم الله سبحانه وإرشاده بل إن شئت قُلْ قد صنعهم الله على عينه ، وأخرجهم إخراجا كتعبير القرآن الكريم العميق (كنتم خير أمة أُخرجت للناس

---

١) احياء علوم الدين ٤/٣ .
٢) القيامة /٢ .
٣) الفجر /٢٧ .
٤) يوسف /٥٣ .
٥) رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها /١٠ .
٦) الواقعة /٧—٩ .
٧) الواقعة /١٠ .
٨) زاد المعاد ٢/٣٩ .